الحمد لله المبدئ المعيد، الفعال لما يريد، خلق الخلق بعلمه، وقدر لهم أقدارا، وضرب لهم آجالا لا يستأخرون عنها ساعة ولا يستقدمون، قدر مقادير الخلائق، قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء، علم ما كان وما سيكون، وكل شيء عنده بمقدار، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وصفيه وخليله، وخيرته من خلقه، صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان ما تعاقب الجديدان: الليل والنهار.

أما بعد:فحديثنا هذا اليوم يتناول موضوعا أحسبه من الموضوعات التي نحتاج إليها جميعا ويدور حول قوله تعالى: ﴿ وإذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾

١.أهمية الموضوع :

١- النصوص الواردة في الثناء على من حفظ لسانه:

قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ ﴾(المؤمنون ١-٣)

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ۝٧٢ ﴾(الفرقان ٧٢)

٢- نصوص تدل على جسامة مسئولية الكلمة:

قال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨ ﴾(ق ١٨)

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦ ﴾(الإسراء ٣٦)

وقال النبي ﷺ :« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت.»[1]

وقال ﷺ «إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست أو حدثت به أنفسها، ما لم تعمل بـــه أو تكلّم .»[1]

[1] متفق عليه من حديث أبي هريرة.

وعن أبي موسى ﷺ قال: أي المسلمين أفضل؟ قال:«من سلم المسلمون من لسانه ويده »[2]

وعن سفيان بن عبد الله ﷺ قال: قلت: يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به، قال :«قل ربي الله ثم استقم» قلت: يا رسول ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال : «هذا» [3]

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا، يهوي بها سبعين خريفا في النار.»[4]

وعن عقبة بن عامر ﷺ عن النبي ﷺ قال:« أملك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك» [5]

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ مرفوعا: «أكثر خطايا ابن آدم في لسانه»[6]

٣- إن أهمية هذا الموضوع تأتي أيضا من أنه مفتاح الحق وجامع الكلمة ، والمؤلف بين القلوب ، لأن من أقوى أسباب الاختلاف بين العباد الظلم والاعتداء وفقدان العدل والإنصاف .

٤- أنه لو جاهد المسلم نفسه لتحقيق صفة العدل على نفسه ومع الناس فإن كثيراً من المشكلات التي تحصل بين المسلمين سواء منها الفردية أو الجماعية ستزول وتحل بإذن الله .

٥- أن سبب الانحراف عن الحق والإصرار على الباطل إما الجهل وإما الظلم ، فالجهل علاجه العلم ، والظلم علاجه العدل والإنصاف والقسط .

٢. مسئولية الكلمة : عن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وآله

---

(١) رواه الخاري من حديث أبي هريرة.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه الترمذي، وقال : حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترغيب.

(٤) رواه الترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم١٨٨٤

(٥) أخرجه ابن المبارك في الزهد، وانظر الصحيحة برقم ٨٩٠

(٦) رواه الطبراني وابن عساكر، وهو في الصحيحة برقم ٥٣٤

وسلم في سفر فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير فقلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار؟ قال: لقد سألت عظيما وإنه ليسير على من يسره الله عليه تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ النار الماء، وصلاة الرجل في جوف الليل ثم قرأ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ...حتى بلغ ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (السجدة ١٦-١٧)

ثم قال ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ الجهاد ثم قال ألا أخبرك بملاك ذلك كله قلت بلى فأخذ بلسانه فقال:« تكف عليك هذا» قلت يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال ثكلتك أمك يا معاذ هل يكب الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم.»[1]

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أيضاً أهمية العدل مع الخصوم والمفارقين لأهل السنة حيث يقول : « وأهل السنة والعلم والإيمان يعلمون الحق ، ويرحمون الخلق ، ويتبعون الرسول ﷺ ، ولا يبتدعون ، ومن اجتهد فأخطأ خطأً يعذره فيه الرسول ﷺ عذروه .. إلى أن قال : والله يحب الكلام بعلم وعدل ، ويكره الكلام بجهل وظلم ،... وقد حرم سبحانه وتعالى الكلام بلا علم مطلقاً ، وخص القول عليه بلا علم بالنهي ؛ فقال تعالى : ﴿ولا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ وأمر بالعدل على أعداء المسلمين فقال تعالى : ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [2].

٣.تعريف العدل ومنزلته في الكتاب والسنة : قال في لسان العرب : العدل : ما قام في النفوس أنه مستقيم ، وهو ضد الجور .

عدل الحاكم في الحكم يعدل عدلاً ، وهو عادل من قوم عدول .. وفي أسماء الله الحسنى

---

[1] رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد وانظر صحيح الترمذي٢١١٠و صحيح ابن ماجه٣٢٠٩

[2] مجموع الفتاوى ، ٩٦/١٦ .

(العدل) وهو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم .

والعدل : الحكم بالحق .

وكتب عبد الملك إلى سعيد بن جبير يسأله عن العدل فأجابه : إن العدل على أربعة أنحاء : العدل في الحكم ، قال الله تعالى : ﴿ وإنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ والعدل في القول ؛ قال تعالى : ﴿ وإذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾، والعدل في الفدية ؛ قال تعالى : ﴿ لا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾، والعدل في الإشراك ؛ قال تعالى : ﴿ ثُمَّ الَذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾، أي : يشركون .

٤. الآيات الواردة في ذكر العدل والحث عليه والتحذير من ضده:

الآية الأولى : يقول الله عز وجل : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ والْمَلائِكَةُ وأُوْلُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾[ال عمران ١٨]

* يعلق شيخ الإسلام على قوله تعالى :﴿ قَائِماً بِالْقِسْطِ ﴾ بقوله :« فإن الاستقامة والاعتدال متلازمان ، فمن كان قوله وعمله بالقسط كان مستقيماً ، ومن كان قوله وعمله مستقيماً كان قائماً بالقسط ، ولهذا أمرنا الله عزوجل أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وصراطهم هو العدل والميزان ليقوم الناس بالقسط والصراط المستقيم هو العمل بطاعته وترك معاصيه ، فالمعاصي كلها ظلم مناقض للعدل مخالف للقيام بالقسط والعدل).[1]

الآية الثانية : قوله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّه ولَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ إن يَكُنْ غَنِياً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الهَوَى أَن تَعْدِلُوا وإن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾[سورة النساء : ١٣٥] يقول الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية : « يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط ، أي بالعدل ، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا يصرفهم عنه صارف ، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين ، يقول: ﴿شُهَدَاءَ لِلَّه﴾ كما قال تعالى:﴿ وأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّه ﴾، أي : أدوها ابتغاء وجه الله ، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقاً ، خالية من التحريف والتبديل والكتمان ، ولهذا قال : ﴿ ولَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ ﴾، أي : اشهد بالحق ولو عاد ضررها عليك ، وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه ولو عاد

[1] مجموع الفتاوى ١/٥٥، ٤ ا/ ١٧٩ .

ضرره عليك ، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً من كل أمر يضيق عليه ، وقوله : ﴿ أَوِ الوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ ﴾، أي : وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك ، فلا تراعهم فيها ، بل اشهد بالحق وإن عاد الضرر عليهم ، فإن الحق حاكم على كل أحد .

وقوله : ﴿ إن يَكُنْ غَنياً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا ﴾، أي : لا تراعه لغناه ، ولا تشفق عليه لفقره ، فالله يتولاهما ، بل هو أولى بهما منك وأعلم بما فيه صلاحهما .

وقوله : ﴿ فَلا تَتَّبِعُوا الهَوَى أَن تَعْدِلُوا ﴾، أي : لا يحملنكم الهوى والمعصية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشؤونكم ، بل الزموا العدل على أي حال كان.

الآية الثالثة : قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّه شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى واتَّقُوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[سورة المائدة : ٨] .

الآية الرابعة : قوله تعالى : ﴿ وإذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ولَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾[الأنعام : ١٥٢] .

٥. الأحاديث الواردة في الحث على العدل وتجنب الظلم والبغي:

الحديث الأول : عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أنه قال : «نحلني أبي نحلاً ، فقالت أمي عمرة بنت رواحة : لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ ، فجاءه ليشهده على صدقتي فقال : أكل ولدك نحلت مثله ؟ فقال : لا . فقال : اتقوا الله واعدلوا في أولادكم ، وقال : إني لا أشهد على جور . قال : فرجع أبي فرد تلك الصدقة .[١]

الحديث الثاني : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ:« كل سُلامي من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين اثنين صدقة »[٢] .

الحديث الثالث : عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ: « إن المقسطين عند الله على منابر من نور على يمين الرحمن – وكلتا يديه يمين – الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم وما ولوا »[٣] .

٦. أقسام العدل : ينقسم العدل حسب متعلقاته إلى الأقسام التالية :

---

[١] متفق عليه.

[٢] رواه البخاري.

[٣] رواه مسلم.

١-أعظم العدل : وهو توحيد الله عز وجل لا شريك له ، ويقابل هذا القسم من العدل : أعظم الظلم ، وهو الإشراك بالله عز وجل ، والكفر به ،حيث قال الله عز وجل : ﴿ وإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان : ١٣] .

وقوله تعالى : ﴿ والْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[سورة البقرة : ٢٥٤] .

٢ -العدل مع النفس : ويدخل في هذا العدل : قيامه بالأمانة التي كلفه الله عز وجل بها ، وذلك فيما بين العبد وربه من الالتزام بأوامره واجتناب نواهيه من غير إفراط ولا تفريط ، ويقابل هذا القسم من العدل : ظلم العبد لنفسه بارتكابه ما حرم الله ﷻ مما هو دون الشرك – أو تركه ما أمر الله ﷻ مما يتعلق بنفسه ، ولا يتعدى إلى غيره .

٣-العدل مع العباد : وهذا النوع من العدل هو الذي يهمنا في هذا البحث ويقابل هذا القسم من العدل ظلم العباد واعتداء بعضهم على بعض ، سواء في القول أو الفعل .

٧. من لوازم العدل ومقتضياته : ونقتصر فيها على ما يلي :

١- التثبت من الأمر قبل الحكم عليه : إن من العدل والإنصاف أن يتثبت المسلم من كل خبر أو ظاهرة ، قبل الحكم عليها ، وإن من الظلم والاعتداء الحكم على أمر بمجرد الظنون والأوهام ، وقبل التثبت التام منه ، ولقد بيّن الله ﷻ لنا في سورة الإسراء ، وفي آية واحدة ، المنهج الصحيح الذي ينبغي سلوكه في مثل هذه الأمور ، يقول ﷻ : ﴿ ولا تقف مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ والْبَصَرَ والْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء ٣٦] .

قال قتادة :« لا تقل : رأيت ولم ترَ وسمعتُ ولم تسمع وعلمتُ ولم تعلم فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله .»

﴿ ولا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾.. ولا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين ، وما لم تتثبت من صحته ؛ من قول يقال أورواية تروى ، ومن ظاهرة تفسر أو واقعة تعلل ، ومن حكم شرعي ، أو قضية اعتقادية .

٢-العدل في النقد ومعالجة الخطأ : هذا الجانب من جوانب العدل نحتاج إليه في كل حال من أحوالنا الفردية والجماعية ، وذلك في حل مشكلاتنا ومعالجة أخطائنا معالجة شرعية تسيطر عليها روح المحبة والإخلاص .

ويجدر بنا أن نذكر هنا المنهج العادل والطريقة المثالية لمعالجة الخطأ ، وذلك حسبما رسمه لنا

رسول الله ﷺ، وما أكثر المواقف العادلة في سيرته ﷺ ، بل إن سيرته ﷺ كلها عدل ، ونكتفي هنا بمثال واحد : ألا وهو موقفه ﷺ من صنيع حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه في فتح مكة . ويحسن أن نذكر القصة بتمامها ، ليتضح لنا ذلك القسطاس المستقيم الذي انتهجه الرسول ﷺ في معالجة هذا الخطأ ، رغم شناعته وخطورته : روى الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : « بعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثد والزبير – وكلنا فارس– ، قال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين ، فأدركناها تسير على بعير لها ، حيث قال رسول الله ﷺ ، فقلنا : الكتاب ؟ فقالت : ما معنا من كتاب ، فأنخناها ، فالتمسنا فلم نر كتاباً ، فقلنا : ما كذب رسول الله ﷺ؛ لتخرجن الكتاب ، أو لنجردنك ، فلما رأت الجد ، أهوت إلى حجزتها – وهي محتجزة بكساء – فأخرجته ، فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ فقال عمر : يا رسول الله ؛ قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعني فلأضرب عنقه .

فقال النبي ﷺ : ما حملك على ما صنعت ؟ قال حاطب : والله ما بي أن لا أكون مؤمناً بالله ورسوله ﷺ ، أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي ، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله ، فقال ﷺ : صدق ، ولا تقولوا إلا خيراً .

فقال عمر : إنه قد خان الله والمؤمنين ، فدعني فلأضرب عنقه ، فقال : أليس من أهل بدر ؟ لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة – أو : فقد غفرت لكم ، فدمعت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم » .

من هذه الحادثة نستطيع أن نحدد أربع مراحل للمعالجة العادلة للخطأ ، مهما كانت ضخامته :

١–المرحلة الأولى : مرحلة التثبت من وقوع الخطأ ، وفي هذه الحادثة قد تم التثبت عن طريق أوثق المصادر ، ألا وهو الوحي ، حيث أوحى الله ﷻ إلى الرسول ﷺ بخبر الكتاب الذي أرسله حاطب مع المرأة ، وأين هي المرأة، ومع ذلك لم يسائل حاطبا إلا بعد إحضار الكتاب.

٢–المرحلة الثانية: مرحلة إلزام مرتكب الخطإ وحمله على الاعتراف.

٣–المرحلة الثالثة : مرحلة التثبت وتبُّين الأسباب التي دفعت إلى ارتكاب الخطأ ، وهذا الأمر متمثل في قوله ﷺ لحاطب : «ما حملك على ما صنعت ؟ » ، وهذه المرحلة مهمة ،

لأنه قد يتبين بعد طرح هذا السؤال أن هناك عذراً شرعياً في ارتكاب الخطأ ، وتنتهي القضية عند هذا الحد ، فإذ لم تنته عند هذا الحد مثل ما ظهر في قضية حاطب ، وأن العذر الذي أبداه لرسول الله ﷺ لم يكن مقنعاً، ولكنه طمأن رسول الله ﷺ على صدق حاطب وأنه لازال مسلماً ، نقول : إذا لم يكن العذر مقنعاً من الناحية الشرعية فإنه يصار إلى :

٤-المرحلة الرابعة : وفيها يتم جمع الحسنات والأعمال الخيرة لمرتكب الخطأ ، وحشدها إلى جانب خطئه ، فقد ينغمر هذا الخطأ أو هذه السيئة في بحر حسناته ، وهذا هو الذي سلكه الرسول ﷺ مع حاطب رضي الله عنه ، حيث قال ﷺ لعمر عندما استأذن في قتل حاطب : أليس من أهل بدر ؟ ثم قال : لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة-أو غفرت لكم - .

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله كلاماً جيداً حول هذا الموضوع ، حيث قال في رده على من قال : إن الله يعافي الجهال مالا يعافي العلماء ؟ « فالجواب : أن هذا الذي ذكرتموه حق لا ريبة فيه ، ولكن من قواعد الشرع والحكمة أيضاً أن من كثرت حسناته وعظمت ، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر ، فإنه يحتمل له ما لا يحتمل من غيره ، ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره ، فإن المعصية خبث ، والماء إذا بلغ القلتين لم يحمل الخبث ، بخلاف الماء القليل فإنه يحمل أدنى خبث ، ومن هذا قول النبي ﷺ لعمر : « وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» ، وارتكب مثل ذلك الذنب العظيم ، فأخبر ﷺ أنه شهد بدراً ، فدل على أن مقتضى عقوبته قائم ، لكن منع من ترتيب أثره عليه ما له من المشهد العظيم ، فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة في جنب ما له من الحسنات .

ولما حض النبي ﷺ على الصدقة ، فأخرج عثمان رضي الله عنه تلك الصدقة العظيمة ، قال : «ما ضرَّ عثمان ما عمل بعدها»[1]

وهذا موسى كليم الرحمن عليه السلام ألقى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه له ، ألقاها على الأرض حتى تكسرت ، ،وأخذ بلحية هارون وجره إليه وهو نبي الله ، ولطم عين ملك الموت ففقأها، وكل هذا لم ينقص من قدره شيئاً عند ربه ، وربه تعالى يكرمه ويحبه ، فإن الأمر الذي قام به موسى ، والعدو الذي برز له ، والصبر الذي صبره ، والأذى الذي أوذي

[1] رواه الترمذي وحسنه، وأحمد في فضائل الصحابة،والحاكم وصححه.

به في الله أمر لا تؤثر فيه أمثال هذه الأمور ، ولا تغير في وجهه ، ولا تخفي منزلته ، وهذا أمر معلوم عند الناس مستقر في فطرهم أنه من له ألوف من الحسنات فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد * جاءت محاسنه بألف شفيع .

وقال آخر :

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً * فأفعاله اللائي سررن كثير .

والله سبحانه يوازن يوم القيامة بين حسنات العبد وسيئاته ، فأيهما غلب كان التأثير له .

٣- الفرح بإصابة الغير للحق والحزن على مجانبته له : ولعل هذا اللازم من أصعب لوازم العدل تحقيقاً ، لأنه يمثل قمة العدل والتقوى والورع ، حيث نرى الكثير من دعاة المسلمين اليوم فضلاً عن عامتهم إذا رأوا غيرهم قد أخطأ فإنهم يفرحون بذلك ، حتى يحسبونه غلبة.

٤- الشهادة للمحسن بإحسانه وللمسيء بإساءته : ومن المواقف المؤسفة التي تنافي هذا اللازم : أننا نرى اليوم كثيراً من الناس يفرطون في محبتهم أو كرههم ، فإذا أحبوا شخصاً أو طائفةً ما ، فإنهم يفرطون في هذا الحب ، ولا يعدلون فيه ، حيث إنهم لا يرون إلا الحسنات ، ويغمضون أعينهم عن الأخطاء والسيئات ويبررونها ويؤولونها ، وكأن من أحبوه لا يجوز عليه الخطأ ، وهذا غلو واعتداء في الحب ، قد يؤدي إلى الغلو في الرجال وتقديسهم ، وفرق بين التقدير والتقديس .

وفي مقابل ذلك إذا أبغضوا شخصاً أو هيئة ما فإن هذا الكره ينسيهم كل الحسنات والإيجابيات.

ويا ليتنا نرجع إلى سيرة سلفنا الصالح -رضي الله عنهم- ، وكيف كانوا في مواقفهم مع المخالفين ؟ ، وكيف كانوا يقوِّمون الرجال ؟ .

فلقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الرحمن بن شماسة قال : أتيت عائشة أسألها عن شيء ، فقالت : من أنت ؟ فقال رجل من أهل مصر ، فقالت : كيف صاحبكم[1] لكم في غزاتكم ؟ فقال : ما نقمنا منه من شيء ، إن كان ليموت للرجل البعير فيعطيه البعير، والعبد فيعطيه العبد ، ويحتاج إلى النفقة فيعطيه النفقة ، فقالت : أما إنه لا يمنعني الذي فعل

---

[1] تعني عمرو بن العاص رضي الله عنه

في محمد بن أبي بكر[1] أن أخبرك : سمعت رسول الله ﷺ يقول وفي بيتي هذا : « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فأرفق به ». ويعلق الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث بقوله : « وفيه أنه ينبغي أن يذكر فضل أهل الفضل ، ولا يمنع منه سبب عداوة ونحوها) » .

وهذا الإمام ابن كثير –رحمه الله– يقول في ترجمته لشيخ الإسلام ابن تيمية بعد كلام طويل : « وبالجملة كان رَحِمَهُ اللَّهُ من كبار العلماء ، وممن يخطىء ويصيب ، ولكن خطؤه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لجي ، وخطؤه أيضاً مغفور له ، كما في صحيح البخاري : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» فهو مأجور ، وقال الإمام مالك بن أنس : «كل أحد يؤخذ من قوله ويترك ، إلا صاحب هذا القبر ﷺ »[2].

ويقول الإمام ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (الفرق بين النصيحة والتعيير) : «ولهذا كان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ يذكر إسحاق بن راهويه ويمدحه ويثني عليه ، ويقول : وإن كان يخالف في أشياء فإن الناس لم يزل بعضهم يخالف بعضاً .

وكما قال وكان كثيراً ما يعرض عليه كلام إسحاق وغيره من الأئمة ومأخذهم من أقوالهم ، فلا يوافقهم في قولهم ، ولا ينكر عليهم أقوالهم ولا استدلالهم ، وإن لم يكن هو موافقاً على ذلك كله» [3].

قال شيخ الإسلام بن تيمية:« ومما ينبغي أيضاً أن يعرف : أن الطوائف المنتسبة إلى متبوعين في أصول الدين والكلام على درجات ، منهم من يكون قد خالف السنة في أصول عظيمة ، ومنهم من يكون إنما خالف السنة في أمور دقيقة ، ومن يكون قد رد على غيره من الطوائف الذين هم أبعد عن السنة منه ، فيكون محموداً فيما رده من الباطل وقال من الحق ؛ لكن يكون قد جاوز العدل في رده بحيث جحد بعض الحق ، وقال بعض الباطل ، فيكون قد رد بدعة كبيرة ببدعة أخف منها ؛ ورد باطلاً بباطل أخف منه ، وهذه حال أكثر أهل الكلام المنتسبين إلى السنة والجماعة ، ومثل هؤلاء إذا لم يجعلوا ما ابتدعوه قولاً يفارقون به جماعة المسلمين ، يوالون عليه ويعادون ، كان من نوع الخطأ ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يغفر للمؤمنين خطأهم في

---

[1] قال عمرو بن دينار: أتي بمحمد أسيرا إلى عمرو بن العاص فقتله بعثمان. (سير النبلاء٣/٤٨٢)

[2] البداية والنهاية ١٤ / ١٣٩ ، ط دار المعارف .

[3] الفرق ين النصيحة والتعبير ص ٣١ ، ٣٢ دار ابن القيم .

مثل ذلك .

ولهذا وقع في مثل هذا كثير من سلف الأمة وأئمتها ؛ بخلاف من والى موافقه وعادى مخالفه ، وفرق بين جماعة المسلمين ، وكفر وفسق مخالفه دون موافقه في مسائل الآراء والاجتهادات ، واستحل قتال مخالفه دون موافقه فهؤلاء من أهل التفرق والاختلافات» [1].

٥- الابتعاد عن النجوى : إن مما يفرضه العدل على المسلم أن يبتعد عن النجوى التي من شأنها إحزان المسلمين وإثارة العداوة والبغضاء بينهم ، وهى عامل مهم في ترويج الشائعات، يقول الله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمنوا ولَيْسَ بِضَارِّهُمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المجادلة ١٠]

والنجوى لا تأتي بخير إلا في أحوال ثلاثة ذكرها الله عز وجل في سورة النساء حيث قال ﷻ :﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ وما سوى ذلك فهو شر وتفريق بين المؤمنين .

والناس إزاء الشائعات التي تثار حول شخص أو هيئة ما ، ينقسمون ، حسب تعاملهم مع هذه الشائعات إلى ثلاثة أصناف :

الصنف الأول : من يقبل هذه الشائعات على علاتها ، ويرتب عليها أموراً ومواقف من غير تثبت ولا تبين .

الصنف الثاني : من يقوم بالتناجي بها ، بعيداً عن صاحب الشأن فيها ، ومعلوم ما في ذلك من الوقوع في الغيبة ، وإذكاء الشائعة وانتشارها .

الصنف الثالث : من يسارع إلى التثبت من الشائعة ممن أثيرت حوله مباشرة ، ولا يذهب مع الظنون والوساوس النفسية أو المناجاة التي تحزن المسلم .

ولو حاكمنا معاملة هذه الأصناف الثلاثة إلى كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ لاتضح لنا أن أهل الصنف الأول والثاني مخالفون للشرع ، وأن طريقة الصنف الثالث هي الطريقة الشرعية التي تقوم على التثبت، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦ ﴾ (الحجرات ٠٠٦)

---

[1] مجموع الفتاوى ٣ / ٣٤٨ .

الخاتمة :

ولعلنا في هذه الخاتمة نجمل ما تم تفصيله في ثنايا هذا البحث:

١- إن الإنسان في طبيعة نفسه الأمارة كان ظلوماً جهولاً .

٢- إن الأمانة العظيمة التي أشفقت من حملها السماوات والأرض لن يستطيع أن يحملها الإنسان إلا بالعلم والعدل .

٣- إن العدل كلمة يراد بها التوسط في الأمور وذلك بين الإفراط والتفريط ، فالجافي والغالي كلاهما قد جانب العدل .

٤- للعدل صور كثيرة مردها إلى ثلاثة أقسام : العدل الأعظم وهو توحيد الله عز وجل ، والعدل مع النفس ، والعدل مع العباد .

٥- كان التركيز في هذا البحث على العدل مع العباد وذلك للحاجة الماسة إليه .

٦- للعدل مقتضيات ولوازم كثيرة لا يمكن استيعابها في مثل هذا البحث ، وقد ركزت على أهمها وخاصة فيما يتعلق بالتعامل مع الناس من إقالة العثرات ، وإحسان الظن ، وقطع الطريق على الشيطان الذي يسعى إلى إيجاد الإحن والأحقاد والظلم بين المسلمين .

٧- أن سبب الاختلاف والتفرق بين المسلمين يرجع إلى أمرين مهمين : أ- الجهل الناشئ من فقدان أو قلة العلم بدين الله والذي يؤدي إلى الأخذ بالباطل محسوباً أنه هو الحق ب- الظلم الناشئ من الهوى وعدم العدل والإنصاف ، ومثل هذا قد يعلم صاحبه أن الحق مع مخالفه ، ولكن التعصب والهوى ومجانبة العدل يجعله يصر على الباطل ، ولو علم أنه باطل .

٨- إن وسائل رفع الجهل عن النفس يتم بتعلم دين الله عز وجل وحدوده ، كما بلغه الرسول ﷺ لأصحابه وسار عليه سلف الأمة من التابعين وتابعيهم من أئمة هذا الدين وأعلامه .

أما وسائل رفع الظلم والتحلي بالعدل والإنصاف فإنه لا يتم بالتعلم فقط ، فقد يعلم الإنسان بتلك الوسائل ولا يعمل بها ، وللعدل مفاتيح وعلامات وتباشير أجملها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله : « وإن للعدل أمارات وتباشير ، فأما الأمارات فالحياء والسخاء والهين واللين ، وأما التباشير فالرحمة ، وقد جعل الله لكل أمر باباً ، ويسر لكل باب مفتاحاً ، فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد .

والاعتبار : ذكر الموت بتذكر الأموات والاستعداد له بتقديم الأعمال ، والزهـــد : أخـــذ الحق من كل أحد قبله حق ، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق ، ولا تصانع في ذلك أحداً». [1]

هذا ما تيسر جمعه والشكر موصول للإخوة القائمين على تنظيم هذه المحاضرة في غران يوف وما جاورها، سائلا الله ﷻ أن يوفقنا وإياهم على الاعتصام بحبله المتين، وصلى الله وســـلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

كلبان/ ١٤٢٦/٨/٢٧ هـ= ٢٠٠٥/١٠/١م

[1] خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ووصاياه ، جمع د/ محمد أحمد عاشور ، ص ٦٢ دار الاعتصام .